Journal of Humanities and Social Sciences
Volume (5), Issue (10): 30 Aug 2021
P: 65 - 74
ISSN: 2522-3380
مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية
المجلد (5)، العدد (10): 30 أغسطس 2021م
ص:65 - 74

Semiotics of Color in Omar Abu Risha's poetry

Ahmad Ata Allah Abdul-Aziz
Mohamed Salem Al-Awadi
Muthanna Khalid Al-Thiabat
Sultan Zain Al-Abidin University || Malaysia

Abstract: This research aims at studying the phenomenon of color in the poetry of Omar Abi Risha, and stating the level of employing such phenomenon in his poetry. Hence, the poet Abu Risha has a unique experience in adopting color as an important element in the artistic formation of his poetry.

Therefore, the importance of this research stems from showing the connotations of colors in the poetry of Abu Risha, and showing the aesthetic dimension that such connotations achieve by diving into the depths of words that denote colors, so as to reveal such connotations for the purpose of reaching what is touring in the poet's Soul, and what he carries in his inner side of hidden meanings.

Accordingly, this research deals with Abu Risha's attitude towards colors and the underlyin semantic purposes that they refer to according to a descriptive and analytical approach. Furthermore, I discovered while doing the research that the poet used colors in his poetry extensively, an in particular red and black colors, which occupied the largest part of his poetic works; in addition to the connotations intended by him by using the expressions indicating colors in his poems, either directly or I directly.

Keywords: Semiotics, Color, Abu Risha, Comlete Poetic Works.

سيمياء اللون في شعر عمر أبو ريشة

أحمد عطا الله عبد العزيز
محمد سالم العوضي
مثنى خالد الذيابات
جامعة السلطان زين العابدين || ماليزيا

المستخلص: هدف هذا البحث إلى دراسة ظاهرة اللون في شعر عمر أبي ريشة، وبيان مستوى توظيف هذه الظاهرة في قصائده، كما يهدف إلى بيان دلالات الألوان في شعره، وللشاعر أبو ريشة تجربة فريدة في اعتماده للون كعنصر هام في التشكيل الفني لشعره.

تنبع أهمية هذا البحث في الكشف عن دلالات الألوان في شعر أبي ريشة، وإظهار البعد الجمالي الذي تحققه هذه الدلالات، من خلال الغوص في أعماق الألفاظ التي تدل على الألوان؛ لكشف هذه الدلالات؛ بغية الوصول إلى ما يجول في نفس الشاعر، وما يحمله من معان خفية.

يتناول هذا البحث موقف أبي ريشة من الألوان والأغراض الدلالية الكامنة التي تشير إليها وفق منهج وصفي تحليلي، واكتشف الباحثون من خلال البحث أن الشاعر وظف الألوان في شعره بشكل كثيف، خصوصاً اللونين؛ الأحمر والأسود، اللذان احتلا الجزء الأكبر في أعماله الشعرية، إضافة إلى الدلالات التي قصدها من استخدامه للألفاظ الدالة على الألوان في قصائده، سواء بشكل مباشر أو غير مباشر.

الكلمات المفتاحية: السيمياء، اللون، أبو ريشة، الأعمال الشعرية الكاملة.

المقدمة.

شكل اللون عنصراً هاماً في تشكيل النص الشعري، وجاء اهتمام العرب به منذ القدم، وكان محورا رئيسيا لدى الشعراء، سواء قديما أم حديثا، بيد أن الشعراء المعاصرين كان اهتمامهم به أكثر؛ لأنهم أدركوا الألوان ومدلولاتها، مما دعاهم للاهتمام بها، وتوظيفها في أعمالهم الشعرية، واللون يمنح الأديب معان غير متناهية؛ للتعبير عن كل شيء في عالمه الخاص، وتظهر من خلال رمزيته خوالج الأديب وأفكاره، ويسهم في تشكيل النص الشعري، كما أنه استخدم للتعبير الرمزي عن المعتقدات، وعن المشاعر بأطيافها من فرح وحزن، وحب وكره، وتفاؤل وتشاؤم.

واللون "يوقظ الأحاسيس وينمي الشعور ويبهر النظر، وهو إما أن يكون مثيراً للعاطفة أو مهدئا للنفس، ويظهر ذلك من خلال ما نفضله من ألوان عندما نقوم بتزيين مسكننا أو اختيار ملبسنا" (طالو، 2008: 5)، والشاعر هو من ينتقي الألوان ويسيرها دون اعتباطية أو مصادفة، ويحمل اللون دلالات متعددة يكتسبها من السياق الذي توظف فيه، وقد جاءت هذه الدراسة لتبرز ظاهرة اللون في شعر أبي ريشة من منظار علم السيمياء، الذي يساعدنا في الكشف عن مكنونات المعاني وفك شفرات النص، وكشف ما خفي من المعاني، والسيميائية تدرس الأشكال الرمزية والوجوه الخفية؛ لتبين الدلالات الكامنة في النص الشعري عبر دراسة هذه العلامات، مما يساعدنا في الكشف عن أسرار أبي ريشة الرمزية عند استخدامه للألوان.

مسألة البحث

بعد قراءة عميقة وشمولية في أعمال أبي ريشة، تبين أن ظاهرة اللون هيمنت على مساحة واسعة في قصائده، ولذلك ارتكزت على هذه الظاهرة، ولجأت إلى علم السيمياء؛ للوصول إلى الدلالات الكامنة وراء الألفاظ الدالة على اللون.

أسئلة البحث

تتحدد مشكلة البحث في الأسئلة التالية:

1- ما مدى توظيف اللون بصورة مباشرة وغير مباشرة في شعر عمر أبو ريشة.
2- ما الأسباب التي دفعت الشاعر إلى استخدام كل لون من الألوان في تجربته الشعرية؟
3- ما الأغراض الدلالية التي قصدها أبو ريشة في توظيفه لكل لون؟

فرضيات البحث

1- عنصر اللون له مكانة كبيرة وواضحة في شعر عمر؛ لكثرة توظيفه للألفاظ الدالة على الألوان بشكل مباشر أو غير مباشر.
2- استخدام الشاعر للألوان يمكن أن يكون نتيجة فرح أو حزن أو تشاؤم أو غربة فرضت على الشاعر، أو يمكن أن يكون لها أسباب أخرى لا بد أن تكشف في هذا البحث.
3- الدلالات التي قصدها الشاعر من هذه الألوان قد تكون سلبية كالموت والفناء، وقد تكون إيجابية كالفرح والتفاؤل.

أهداف البحث

يهدف هذا البحث إلى الآتي:

1. توضيح مدى توظيف اللون بصورة مباشرة وغير مباشرة في شعر عمر أبو ريشة.
2. تحديد الأسباب التي دفعت الشاعر إلى استخدام كل لون من الألوان في تجربته الشعرية.
3. بيان الأغراض الدلالية التي قصدها أبو ريشة في توظيفه لكل لون.

اللون: لغة واصطلاحا

- عرف ابن منظور اللون في اللغة بأنه: هيئة السواد والحمرة، ولون كل شيء ما فصل بينه وبين غيره (ابن منظور1999: 367)، وورد لفظ اللون في القرآن الكريم، في قوله تعالى حينما وصف بقرة إسرائيل: "إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين" (البقرة: 69)، ويقصد باللون هنا الصفة التي تقوم بالجسد من البياض والسواد وغيرها.
- أما اصطلاحاً، فقد تعددت التعريفات لمصطلح اللون، لكن أبرزها جاء في تعريف اللون بأنه "الهيئة الصبغية التي يكون عليها الشيء، والجمع ألوان". (زكي، 2000: 227)
- وفي الموسوعات الحديثة أصبح لمصطلح اللون تفصيلا؛ نظراً لتطور العلم، فهو "خاصية ضوئية تعتمد على طول الموجة، ويتوقف اللون الظاهري لجسم ما على طول موجة الضوء الذي يعكسه". (غربال وآخرون، 1986: 1581)
  - وبكل تواضع يمكننا أن نعرف اللون، فمن حيث اللغة يقصد به النوع أو الهيئة، أما في الاصطلاح فهو تعبير عن ألوان الطيف على اختلافها، فقد ارتبط ارتباطا وثيقا بالحواس؛ لأن من خلاله نرى مظاهر الطبيعة المختلفة.

دلالات الألوان في شعر عمر أبو ريشة:

إن المتتبع لشعر أبي ريشة يكتشف حبه للألوان، فقد استعملها بكثرة، سواء بألفاظ الألوان، أو أسمائها، أو صفاتها، وسأقوم في استكناه الدلالات التي يرمز إليها أبو ريشة، ومن الجدير بالذكر أن الباحثين تطرقوا إلى دراسة جوانب متعددة من أشعار أبي ريشة، فكتبت عنه دراسات ومقالات وأبحاث متعددة، لكن أقلام الباحثين قد ابتعدت عن دراسة ظاهرة اللون ودلالاته في شعر أبي ريشة، فارتأيت أن أعالج شعره من هذه الناحية، وسأقوم بتفصيل وشرح دلالات كل لون على حده.

اللون الأحمر

هو لون القوة والحركة والحياة، ولون الحب والتفاؤل والشباب، لكنه أيضا يدل على القتل والدم في المعارك والحروب، فتختلف دلالته حسب موطنه، وقد ورد ذكر اللون الأحمر في أعمال أبي ريشة (30) مرة بشكل مباشر، وجاء بألفاظ كثيرة غير مباشرة تدل على اللون الأحمر، ومن الصيغ التي ورد فيها الأحمر بشكل مباشر: (حمراء، حمر، الأحمر، أحمر قان، حمرة) ووظفه أبو ريشة في شعره، ورمز له بدلالات متعددة، فدل على الدم في الحرب والقتال، ودل على الحياة؛ لارتباطه بالجنين عند ولادته، كما دل أو رمز به للشؤم، بيد أن البشر أحبوه في لون خدود المرأة وشفاهها، فيكون رمزاً إلى الجمال والحسن والخجل، وقد احتل اللون الأحمر والألفاظ التي توحي به مساحةً واسعةً في شعر أبي ريشة، فجاء في المرتبة الأولى من الألوان في أعمال أبي ريشة، وسأقوم بذكر وتحليل الدلالات المباشرة وغير المباشرة بالتفصيل.

وظف أبو ريشة دال الأحمر بدلالات مباشرة في الإنسان والطبيعة وما يحيط بهما، ففي قصيدة "النسوة الثلاث" يقول: (أبو ريشة، 2005: 288)

هناك خلف الموقد المسعر

امرأة دامية المنظر

تغزل خيط الكفن الأحمر

يربط الشاعر في المقطع الشعري السابق اللون الأحمر بالكفن، دلالة على الموت والعذاب، فهو يشير إلى وجود امرأة تجلس خلف موقد النار، وتجهز كفنها بخيوط لونها أحمر، فاستدعى الشاعر اللون الأحمر مع الكفن؛ ليدل به على مرار الحياة والألم والحزن المسيطر على هذا المرأة، وكما هو معلوم أن الكفن يكون باللون الأبيض، إلا أن الشاعر أسقط اللون الأحمر، ووظفه بشكل سيميائي، يشير به إلى الظلم الذي تعيشه هذه المرأة، ووقوعها كضحية أمام عالم مليء بالانكسارات والذل والهوان، فجاء الأحمر هنا يحمل دلالة الظلم الواقع على الإنسان.

ومن المعروف أن أبا ريشة من الشعراء أصحاب النزعة القومية، المدافعون عن الأمة العربية والدول المحتلة فيها، وتميز شعره بالوطنية، ففي قصيدة " نحن والسلطان " يرسم صورةً شعريةً حزينةً، إذ يقول: (أبو ريشة، 2005: 324)

جيشي الجبار

سيمحو العار

ويمحق آثار العدوان

ويعيد فلسطين الحمراء

إلى أهلها دار أمان

أنا باق في وجه الطغيان

أنا لست جبان

يمثل اللون الأحمر في المقطع الشعري السابق دلالة القمع والقتل والإجرام والدم الذي يغطي مساحات واسعة من أرض فلسطين، لدرجة أن الشاعر نعتها بالحمراء في عبارة (فلسطين الحمراء)، كما أن في المقطع مفردات تفزع القارئ وتشعره بالخوف؛ لشدة وقسوة المشهد الذي يصوره الشاعر مثل: (الجبار، يمحق، يمحو، الطغيان)، وهذا يقودنا إلى معرفة الحالة النفسية الحزينة المسيطرة على الشاعر، فالأحمر جاء دلالة على الحزن والمصيبة والموت.

وفي موضع آخر، جعل الشاعر اللون الأحمر دالاً على الجمال، وفي قصيدة "بين اللحن والكلمة" يقول: (أبو ريشة، 1991: 253)

عزفت...عزفت حتى جفت في حمرة خديها العبرات

ورمت بالعود وهمستها في سمعي تختنقها الزفرات

وظف الشاعر اللون الأحمر في هذه الأبيات؛ ليرمز به إلى الحب الشديد والعاطفة، فهو يشير إلى فتاة جميلة وصفها بعدة أوصاف، يبتدئ في وصف خديها باللون الأحمر، والدموع تسيل على هذين الخدين؛ نتيجة البكاء والحزن الذي يكتنفها، ففي عبارة (جفت في حمرة خديها العبرات) إشارة إلى معان حزينة تعيشها هذه الفتاة بسبب فراقها وبعدها عن حبيبها، فدلالة الأحمر تمثلت في الحزن والألم.

يتبين مما سبق أن الأحمر يشكل تقاطعا حادا بين الحب والحرب، وهما موضوعان يبرزان عنصر الإثارة الكامن في اللون الأحمر.

ولم يقتصر شعر أبي ريشة على استخدامه للون الأحمر بلفظ مباشر، وإنما وظف في شعره بعضا من الألفاظ الموازية له دلاليا، وتوحي بنفس القدر من الحمرة، وكل لفظ يتميز عن غيره في سياقه الخاص والصورة الشعرية المؤلفة له، فتحمل كل كلمة منها دلالات جديدة، مما يجعل اللغة الشعرية ذات معان عميقة وواسعة، مما يكسبها حضوراً سيميائياً من خلال اندماجها مع تجارب أبي ريشة، ونأخذ مثالاً على لفظة من الألفاظ الموازية للون الأحمر، وهي لفظ (الدم) إذ يقول الشاعر في قصيدة " بسمة التحدي": (أبو ريشة، 2005: 56)

سلاحه على الثرى مبعثر محطم
وصدره ممزق يسيل فوقه الدم
وحوله أعداؤه تلعنه وتشتم

استعمل أبو ريشة اللون الأحمر للتدليل على الموت؛ لأن الموت من المظاهر التي يلعب فيها الأحمر دوراً رئيسياً، وهي من أكثر الصور تناقلا في شعر أبي ريشة، وكما نعلم أن أبا ريشة شاعر وطني ثوري، غيور على وطنه وأمته العربية، فيتحدث الشاعر في الأبيات السابقة عن الشهيد، ويرسم مشهداً حزيناً يبين الحالة التي يكون عليها وهو ملقى على أرض المعركة، فسلاحه محطم على التراب، وصدره ممزق نتيجة الطعنات والقتال مع العدو، والدم يجري فوق جسده لا يقدر على فعل شيء، كما يصور الشاعر الأعداء وهم ملتفون حول هذا الشهيد يسبونه، وهذا يدل على الحقد والكره الشديد المدفون في داخل هؤلاء الأعداء، فجاء الأحمر يحمل دلالة الحزن والكآبة والألم.

اللون الأسود:

يأتي اللون الأسود في مقدمة الألوان، وهو لون حافل بالمعاني والدلالات، سيد الحضور، وضد الأبيض غالباً، وهو مرتبط بالشر وصراعه مع الخير، والليل والموت، والحزن والألم والظلمة، وله مدلولات أخرى كثيرة، وتتغير لفظة الأسود ومدلولاتها بتغير موقعها من نسق الجملة. احتل اللون الأسود المرتبة الثانية في أعمال أبي ريشة، واتكئ عليه في التعبير عن حالاته الوجدانية، وما يدور حوله في هذا الكون، حيث ورد بشكل مباشر في (28) مرة، ووظفه الشاعر بدلالات مختلفة مثل: الطبيعة والمكان والإنسان وغير ذلك.

وقد ورد ذكر اللون واشتقاقاته بشكل مباشر وغير مباشر في شعر أبي ريشة، حيث ورد بشكل مباشر بصيغ مختلفة مثل: (سوداوان، السود، السواد، الأسود، السوداء)، ووظفها في شعره، ورمز بها لدلالات متنوعة، ومن هذه الدلالات دلالة الحزن والخوف في قصيدة " الخزان الأكبر" التي يقول فيها: (أبو ريشة، 2005: 237)

عيناك سوداوان وحشيتان
أقرأ في طرفيهما عمري!
فكم طواني في مداه الزمان
وما طوت نجواهما صبري!

قدم لنا الشاعر في هذا المقطع دلالة مضادة للدلالة العامة للون الأسود، فنرى حضور اللون الأسود بصفة جمالية، حيث يفتتح الشاعر قصيدته بذكر اللون الأسود في عبارة (عيناك سوداوان)، وهذا الاستهلال يقودنا إلى حزن خالد في قلب الشاعر عندما نظر إلى عيني هذه الفتاة التي رآها في مدريد، واستذكر الماضي والتاريخ الجميل للأمة العربية، حيث كانت معظم مناطق اسبانيا تحت سيطرة العرب المسلمين، فشعر بالحزن والألم على ماض انقضى وأخذ معه التاريخ الجميل، فعبر عن مصائب الحياة التي ألمت به، والخوف والهلع الذي يحوم حوله، وعلى نحو مناقض للحزن استخدم أبو ريشة اللون الأسود في موضع الجمال واللهو والترف، يقول في قصيدة " أفدي الحسان ": (أبو ريشة، 2005: 62)

اللينات قدودهن المضرمات خدودهنه
النافرات الواثبات الناهدات نهودهنه
المسبلات شعورهن السود فوق نحورهنه

كان ومازال الشعر الأسود صفة من صفات الجمال وموضوع إغراء عند النساء، فالشاعر يصف سواد شعر النساء الناعم المتناثر حول أعناقهن، وهي صفة جمالية يحبها الشعراء، فقد أخذ اللون الأسود دلالة جمالية عندما يصبح شعر هؤلاء النسوة منساباً كأنه نهر من السواد، وكأن الشاعر في هذه الأبيات أصبح طائعاً لشهواته، مستسلماً لنفسه، فجاء اللون الأسود يحمل دلالة الفرح والجمال واللهو، وهذا يعيد الشاعر إلى شبابه وألقه.

إن اللون الأسود غالبا ما يحمل دلالة سلبية، وهذا يقودنا إلى إدراك الشاعر بالطاقة الفاعلة التي تحملها الألوان، وقدرتها على التضاد، وظهرت دلالة الحزن والألم والموت عند أغلب الشعراء، وأبو ريشة أكثر من هذه الدلالة في أعماله الشعرية، إذ يرى أن مستقبله – حسب رؤيته – لن يختلف عن ماضيه وواقعه الأليمين، فكانت جميع اتجاهاته يحيطها السواد، يقول في قصيدة " أدمى السنا ": (أبو ريشة، 2005: 291)

لبى رجائي. لاح لي مثلما صيغ تسمرت سلب الرشاد
أبصرته. أدمى السنا مقلتي من بعد ما وشى دروبي السواد

جاء توظيف الشاعر للأسود في المقطع الشعري السابق توظيفاً أبدياً، فأجبر طريقه إلى التقيد باللون الأسود نتيجة المعاناة والألم، وفي نظرة إلى مستقبله البائس الذي ينتظره، فيتخيل الشاعر أن هذا المستقبل قد طرز باللون الأسود كما يطرز الثوب الأسود الذي يلبس عند الموت والحزن أو عند فقدان عزيز، وهو مكمل لماضيه وواقعه الذي يعانيه.

وظل اللون الأسود يدل على عمق الألم والحزن، والمحيط الذي يعيشه الشاعر، فتتولد عنده معاني القهر والظلم، يقول في قصيدة " شهيد ": (أبو ريشة، 2005: 411)

وكأني أراك في زحمة الهول على سرج ضامر طواح
وأخوك الجسور في القمم السود مطل على الروابي الفساح

وظف أبو ريشة الأسود في حديثه عن الشهيد البطل سعيد العاص؛ ليدل به على الحزن والألم، حيث تشير عبارة (وأخوك الجسور في القمم السود) إلى عدم وجود حياة يهنئ بها، وهذه إشارة إلى أن فلسطين أصبحت عبارة عن مجرد خارطة يعرفها الناس، وهذه دلالة على القلق والحزن الذي يتناسب مع اللون الأسود، فيترادف القتل والموت مع الأسود.

وقد أكثر أبو ريشة من الألفاظ الموازية للون الأسود، وكررها بشكل كبير في شعره، وربما نستنتج أن هناك قصة عشق بين الشاعر واللون الأسود ودلالاته الداكنة، ومن الألفاظ الموازية التي استخدمها أبو ريشة للون الأسود، مفردة (الليل)، وأكثر من استخدام هذه المفردة في قصائده، إذ يقول في قصيدة " كوبا كبانا ": (أبو ريشة، 2005: 136)

طويت العصور الخوالي الطوال
وما زالت تسأل ركب الليال
عن كل أسمر سمح الخلال
أمات على شفتيك السؤال!؟

نلاحظ احتواء المقطع الشعري السابق على السوداوية بشكل مكثف، إذ توحي عليه مفردات عدة، مثل: (طويت، الليال، أسمر، الموت)، وهذه المفردات توحي بالنظرة السوداوية عند الشاعر للحياة التي انعكست على

وجدانه، فظهرت في شعره، ويوحي الفعل (طوى) إلى الثبوت والاستمرارية، ثم يظهر قسوة الليل في عبارة (أمات على شفتيك السؤال) وهي عبارة توحي إلى القسوة التي يعيشها الشاعر، وفي نهاية المقطع يتساءل الشاعر بالهمزة الاستفهامية التي تفيد الحقيقة والإقرار بالحالة المتقدمة بدليل الفعل (مات)، فاللون الأسود جاء ليعبر به عن حالة الخوف والحزن التي شعر بها عند تجواله في شاطئ كوباكبانا؛ نتيجة الاستعمار والبطش الذي حل بها، فكان يسير في هذا الشاطئ والسكون الموحش يسوده، وكأنه يسير في صحبة أرواح الضحايا الأبرياء.

عندما نتأمل في دلالات اللون الأسود في المقاطع الشعرية السابقة، نجد أنها محملةً بمعاني الظلم والحزن والألم والضياع وغيرها، فلم تتعدى حدود الدلالة السلبية التي يحيل إليها اللون الأسود، وفي هذا إشارة إلى أن عواطف الشاعر وانفعالاته النفسية ممتلئة بالألم والعذاب.

اللون الأصفر:

يعد اللون الأصفر من الألوان التي تدل على السرور والإشراق والنور، فهو يعطي شعوراً بالدفء والحيوية؛ كونه يرتبط ببعض عناصر الطبيعة مثل: الشمس والنار، فاللون الأصفر "يمثل قمة التوهج والإشراق، ويعد أكثر الألوان إضاءة ونورانية؛ لأنه لون الشمس ومصدر الضوء، واهب الحرارة والحياة والنشاط والغبطة والسرور" (عبدالوهاب، 1985: 76)، والأصفر من الناحية الدلالية لون يبعث التفاؤل والسعادة، والطاقة الإيجابية، وقد يحمل دلالات مناقضة للسابق، فقد يدل على الحزن والهم والكسل والمرض والموت، فهو متصل بلون الخريف الدال على القحط والجفاف وموت الطبيعة.

أورد أبو ريشة اللون الأصفر في أعماله الشعرية (23) مرة بشكل مباشر، حيث جاء بصيغ مختلفة مثل: (صفرة، الصفراء، مصفر، الأصفر وغيرها)، فحملت هذه الألفاظ دلالات مختلفة عند أبي ريشة مثل: الغربة والمرض والموت والجمال والنور والإشراق، وقد ارتبط هذا اللون بالإنسان بدلالات مختلفة، تثير القارئ للوقوف عندها والتأمل فيها، والبحث عما وراءها، فهو يدل على المرض والهزل عند الإنسان، ومن ذلك قول الشاعر في قصيدة "رثاء الشباب": (أبو ريشة، 2005: 299)

الطيش سار أمامهم سير الغزاة الفاتحين
والحسن مصفر الأديم وراءه دامي الجبين

يعبر الشاعر في هذين البيتين عن الحزن الذي أصابه بعد فقدانه شبابه وصباه وتقدمه في السن، فهو يمر في حالة حزن شديدة؛ نتيجة فقده لماضيه الجميل، ويشير إلى ملامحه التي تحولت وتبدلت بسبب تقدمه في السن، فتبدلت ملامح الجمال والنور في مرحلة الشباب إلى شكل وجسد هزيل لونه أصفر؛ نتيجة الشيخوخة والمرض والخوف من الموت، ودليل ذلك في عبارة (مصفر الأديم) أي أن جلده أصبح كاملا باللون الأصفر بسبب المرض وكبر السن، وهي عبارة مليئة بدلالات الحزن والألم والحرقة على ماض جميل وواقع أليم، والجلد عندما يصبح لونه أصفر فهذا يشير إلى الموت، فيتمنى الشاعر لو أنه لم يكبر وبقي طفلا لا يعلم ما تخبئ له الأيام.

واستخدم أبو ريشة اللون الأصفر للدلالة على القوة والنور والإضاءة، والتغير من حالة الضعف إلى حالة القوة، وذلك في قصيدة بعنوان " أحمد الصافي النجفي "، يقول: (أبو ريشة، 2005: 45)

الشموع الصفراء حين سرى الليل وألقى على الأنام بثوبه
أحرقت روحها لترسل منها شعلة تطعن الظلام بلبه

اكتسب اللون الأصفر في هذين البيتين دلالة التميز والندرة والقوة، وعبارة (الشموع الصفراء) فيها دلالة اللمعان والإشعاع والنور، فيصور الشاعر مشهداً عميقاً، بدأ باحتراق الشموع التي وصفها بالصفراء من أجل أن

تضيء الظلام الذي ساد في تلك الليلة، فأراد الشاعر أن يستمد من اللون الأصفر دلالة الحزن والألم، فالشاعر عند رثائه للشاعر أحمد النجفي أراد أن يبعث الأمل والقوة من أجل هذا الشاعر الكبير وليس الحزن والبكاء عليه، والوقوف عند هذا الحد دون فعل أي شيء يليق به.

ولم يقتصر اللون الأصفر في شعر أبي ريشة على ذكر الأصفر المباشر فقط، بل جاء بألفاظ توحي إلى هذا اللون، وتحمل دلالات عميقة تدل على ما يدل عليه اللون الأصفر، ومن هذه الألفاظ لفظ (الرمل) واستخدمها في أكثر من قصيدة، ومن ذلك قصيدة بعنوان "يا رمل" يقول فيها: (أبو ريشة، 2005: 358)

يا رمل، ما تعب الحادي ولا سئما ولا شكا في غوايات السراب ظما!
على وجومك من نجواه أخيلة شق الفتون بها أكمامه ونما

يفتتح الشاعر قصيدته بعبارة (يا رمل) وكأنه يخاطب ويحاكي إنساناً، ويسأله: ألم يتعب سائق الإبل ويمل ويشتكي من طريق الوهم والخداع!؟ فيقدم أبو ريشة صورة حزينة متعبة، فأشرك اللون الأصفر من بوابة لفظ الرمل، الذي يشير إلى علامة الطبقة الكادحة التي تعمل بقوت يومها، فكأن الشاعر باستخدامه للون الأصفر يشير إلى معاناته من الضياع والتشرد؛ لأن الرمل يشير أيضا إلى الصحراء القاحلة، فهذا يعطي الشاعر شعور الأسى والتعب، فجاء باللون الأصفر (الرمل)؛ ليعطيه دلالة قوية عن رفضه واستسلامه لحالة اليأس التي تكتنفه.

ومن الألفاظ التي توحي بالصفرة، وتدل على الخير والنعمة لفظ (الحصاد) الذي استعمله الشاعر في قصيدة " عوادي الزمان "، يقول: (أبو ريشة، 2005: 146)

تتقي الوهج بالجناح وتهوي سنبلا خلف منجل الحصاد
من لمهد المسيح والمسجد الأقصى وقد رددا صلاة الجهاد

تشكل كلمة (السنبلة) الموجودة في القمح والشعير مصدرا للخير والعطاء، وتبرز إيجابية للون الأصفر؛ لارتباطه بالخير والرزق، فهي تمنح الحياة وتشكل رمزا لها، بيد أن أبا ريشة الذي يرثي في قصيدته هذه الملك غازي، أشار أن موته أثر في نفسيته وتغلغل الحزن في جوارحه، وجاء بالأصفر (السنابل وقت الحصاد) مقابل الحزن والألم الذي يحيط به، لعله لقاء هذا اللفظ يتفاءل، ويكسبه طاقة إيجابية سيميائية، فتشكل بذلك صورة شعرية منفتحة على دلالات عميقة.

اللون الأبيض:

يبعث اللون الأبيض الذي يحتل المرتبة الثانية بعد اللون الأسود عند الشعوب المختلفة الأمل والتفاؤل والصفاء والتسامح، ويدل على النقاء، "ويعتبر من الألوان الباردة التي تثير الشعور بالهدوء" (عبدالوهاب، 1985: 85)، فهو لون محبب إلى القلوب، ويحمل غالباً دلالات إيجابية، إلا أنه " يحمل في الوقت نفسه معنى يقود إلى التشاؤم، ويرتبط ذلك التشاؤم بلون الشيب، كما في قوله تعالى: "واشتعل الرأس شيبا" (مريم: 4) وارتبط الشؤم بالبياض حينما ارتبط بلون الكفن وهو أبيض " (بومالي، 2015: 142)، ولذلك فإن دلالة اللون الأبيض تختلف حسب السياق الشعري، والحالة النفسية التي يمر بها الشاعر وتعطي دلالة مغايرة لاستخدام اللون.

وقد جاء اللون الأبيض في أعمال أبي ريشة (21) مرة بشكل مباشر، وبصيغ مختلفة مثل: (البيضاء، البيض، الأبيض، بيضا)، وجاء به أبو ريشة بدلالات مختلفة مباشرة وغير مباشرة، وقد عمل اللون الأبيض بقوة في سياقه السيميائي عند أبي ريشة في تشكيل الصورة الشعرية، وتنوع استخدامه السيميائي بتنوع موضوعاته وسياقاته الواردة في كل موضوع، يقول في قصيدة "مع المعري": (أبو ريشة، 2005: 357)

قل لتلك الحمائم البيض طيري فالخطايا تدفقت طوفانا!!

أأناجيك يا نجي الدراري وأغنيك أغنياتي الحسانا

يظهر اللون الأبيض هنا مرتبطاً بالحزن، فاستدعى أبو ريشة اللون الأبيض وربطه بالحمائم؛ لدلالة رمزية وبعداً أسطورياً، فالحمائم البيض تحمل دلالة السلام والحرية في عالم يسوده الظلام، فجاءت هذه الحمائم لتنير الطريق وتخرجهم من الظلمات، فعبارة (الخطايا تدفقت طوفانا) تشير إلى الظلم والبطش والفساد الكبير الذي وصفه بالطوفان لشدة وكبر حجم هذا الظلم والبطش الحاصل، فجاء الشاعر بالحمائم البيض؛ لتمهد الطريق نحو السلام والانتصار، ويلاحظ أيضا في الأبيات أن الشاعر أشار إلى التضاد الدائم بين الخير والشر، والبياض والسواد، والحرب والسلام.

"من الطبيعي أن يكون اللون الأبيض لازما في صفات المرأة، فهو سمة الجمال فيها، والمرأة البيضاء معشوقة مطلوبة" (بومالي، 2015: 143) وأبو ريشة قد وظف الأبيض في دلالته الجمالية للمرأة، يقول في قصيدة "سكون": (أبو ريشة، 2005: 166)

أمرتها بأن تموج فماجت تحت تلك الملاءة البيضاء

أوقدي النار فالنوافذ تصطك كأنياب لبوة رعناء

أنت يا فتنة الطبيعة أقوى ما بصدر الوجود من أنواء

دل اللون الأبيض في الأبيات السابقة على الجمال، أي جمال المرأة التي يصفها ويتغزل بها، وهذا نابع من المحبة الموجودة في قلب الشاعر تجاه هذه المرأة، فتشكلت اللوحة الشعرية عبر سلسلة من العلامات التي تساند اللون الأبيض في حقول دلالية توصلنا في نهاية الصورة الشعرية للأبيض المقصود، فالملاءة التي ترتديها هذه المرأة لونها أبيض ناصع جميل المنظر، وعندما أمرها الشاعر بالرقص أخذت ترقص وتتمايل في خصرها، فلم تتردد وسرعان ما لبت طلبه، وعندما رقصت جعلت الشاعر غير قادر على ضبط نفسه، وأثارت مشاعره وأحاسيسه، وافتتن بها ووصفها بـ (فتنة الطبيعة) عندما خاطبها بأسلوب النداء، واستدعاء الشاعر صفة البياض المنسوبة إلى (الملاءة) يوحي بحالة الفرح والسعادة التي يعيشها الشاعر، وعملت على تكثيف المستوى السيميائي وتكوين الصورة الشعرية.

وقد استدعى أبو ريشة مرادفات للون الأبيض في أعماله الشعرية، وأذكر منها لفظة (الكفن) بلونه الأبيض، الذي يرمز به إلى شعور سلبي، يدل على سأمه من الحياة، يقول في قصيدة "خالد": (أبو ريشة، 2005: 398)

أنا من أمة أفاقت على العز وأغفت مغموسة في الهوان

عرشها الرث من حراب المغيرين وأعلامها من الأكفان

لا تقل ذلت الرجولة يا خالد واستسلمت إلى الأحزان

يستذكر أبو ريشة في قصيدته البطل خالد بن الوليد؛ لاستنهاض همم الأمة العربية وبث روح الجهاد، فالشاعر يعتز وبكل فخر أنه من أمة استيقظت منذ بدايتها على العز والفخر والكرامة، غير أنها دخلت بعد خالد في نوم مختلط بالذل والهوان والضعف، لدرجة أنها أصبحت تلبس من رديء الثياب والمتاع، وأبطالها أصبحوا في الأكفان، فجاء الشاعر بلفظ (الكفن)؛ ليجمع فيه مراحل عمره، ويخبئ فيه آلامه وهروبه من واقعه المرير الذي يعاني منه، كما يعاني من الضيق والضياع، ويناجي خالداً ويطلب منه أن لا يحكم على رجال هذه الأمة بالضعف والذل من بعده، فالشاعر يسعى إلى وحدة هذه الأمة وتماسكها، وعدم الاستسلام للأعداء والخضوع لهم.

أهم النتائج.

جاء هذا البحث في أعمال عمر أبو ريشة، معتمداً ظاهرة اللون محوراً رئيسياً له، إذ تبين حضور اللون بأنماطه كافة، ومستوياته التوظيفية، قد أعطى قصائد أبي ريشة طاقة تعبيرية، ارتقت بها إلى مستويات الحداثة الشعرية التي عرف بها أبو ريشة، ويمكن استعراض أبرز النتائج التي توصل إليها الباحث لدلالات الألوان الواردة في متن البحث في شعر أبي ريشة على النحو التالي:

جاء استخدام الشاعر للألوان متلائماً مع رؤيته الخاصة، وعبر بها للإفصاح عن مشاعره وتجسيد أفكاره، فأعطى لكل لون دلالاته ورمزيته الخاصة به، سواء في الألفاظ المباشرة أو غير المباشرة، من خلال استخدامه لمرادفات خاصة بكل لون، واتخذ اللون عنده وظيفة الوصف والتجسيد لتقريب الصورة؛ لينشئ في مستوياته الجمال واللذة، فقد ورد اللون الأحمر بشكل مباشر (30) مرة، وبألفاظ كثيرة بشكل غير مباشر، وجاءت دلالة اللون الأحمر تحمل دلالة الموت والعذاب والقمع والبطش والدم، وكذلك دل على الجمال والحب والغزل. وجاء اللون الأسود في شعره يحمل دلالة الحزن والألم والظلم واليأس، وقد ورد ذكره في أعمال أبي ريشة بشكل مباشر (28) مرة، أما اللون الأصفر، فكانت أبرز دلالاته في شعر أبي ريشة دلالات الإشراق والنور والقوة، وكذلك الحزن والمرض، وورد (23) مرة في أعمال الشاعر، وبالنسبة للون الأبيض، الذي حمل دلالات السلام والخير والجمال والصفاء، وبشكل قليل جدا على الموت، فقد ذكر في أعمال أبي ريشة (21) مرة بشكل مباشر، فيتبين من خلال هذا الإحصاء أن كل لون له دلالات مختلفة ومتنوعة يتفرد بها، وتستنتج هذه الدلالات من خلال ورود اللون في النسق الشعري.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم. (1999). لسان العرب، ط3، بيروت، دار إحياء التراث.
- أبو ريشة، عمر. (2005). الأعمال الشعرية الكاملة، م1، ط1، بيروت، دار العودة.
- أبو ريشة، عمر. (2005). الأعمال الشعرية الكاملة، م2، ط1، بيروت، دار إحياء التراث.
- أبو ريشة، عمر، ديوان" من وحي المرأة". (1991). ط1، دمشق، دار طلاس للنشر والتوزيع.
- بومالي، حنان. (2015). سيميولوجيا الألوان وحساسية التعبير الشعري عند صلاح عبد الصبور، مجلة الأثر، ع23، ديسمبر.
- زكي، حسام الدين. (2000). التحليل الدلالي وإجراءاته ومناهجه، ط1، القاهرة، دار غريب للطباعة والنشر.
- عبد الوهاب، شكري. (1985). الإضاءة المسرحية، ط1، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب.
- طالو، محي الدين. (2008). اللون علما وعملا، ط6، دمشق، دار دمشق للنشر والتوزيع.
- غربال، محمد شفيق وزملاؤه. (1986). الموسوعة العربية الميسرة، مج2، ط1، بيروت، دار نهضة لبنان.